الســـماحة فى الإســـــــــلام

(الإســـــلام والأديـان ... أنموذجاً)

محاضرة ألقيت في مدينة هامبورج الجمعة ٢٠٠٦/١١/٣م

بدعوة من الجمعية المصرية الألمانية بشمال ألمانيا

وبالاشتراك مع معهد جوته

د / أحمــد الطـــــيب

رئيس جامعة الأزهــر

بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام هو الحلقة الأخيرة فى منظومة "الدين الإلهي" الذي بشر به كل الأنبياء و المرسلين من آدم و حتى محمد صلوات الله و سلامه عليهم أجمعين .

و من يتأمل آيات القرآن الكريم يعلم أن الإسلام ليس هو – تحديداً - الرسالة التى نزلت على محمد ﷺ ، و إنما هو الاسم الجامع لكل الرسالات التى حملها الأنبياء على اختلاف أزمنتهم و أمكنتهم . و لذلك كان من الطبيعي أن يوصف الأنبياء السابقون على "محمد" ﷺ بأنهم : "مسلمون" و أن يطلق على كل من : نوح و إبراهيم و موسى و عيسى اسم : "مسلم" ، كما أطلق على محمد نفس الاسم سواء بسواء . و يكفي أن نقرأ فى القرآن الآيات : ١٢٨ ، ١٣٢ ، ١٣٣ من سورة البقرة ، و الآية : ٥٢ من سورة آل عمران ، و الآيتين : ٧٢ ، ٨٤ من سورة يونس، و الآية : ٩١ من سورة النمل لنتأكد من أن هذه الأسماء المتألقة فى لوحة "النبوة" يسميهم القرآن : "مسلمين" .

و ليس الاشتراك بين الإسلام كرسالة أخيرة و الرسالات السابقة عليه هو مجرد اشتراك فى "اسم" أو عنوان فحسب ، بل هو اشتراك فى مضمون "الإسلام" و جوهره و حقيقته . لأن البحث فى القرآن يثبت أن ما جاء به "محمد" من عقائد و أخلاق و سلوك هو نفس ما جاء به نوح و إبراهيم و إسحاق و يعقوب و موسى و عيسى و غيرهم من الأنبياء و المرسلين ، و يؤكد أن الله لم يشرع للمسلمين ديناً جديداً ، بل ما أوحاه الله إلى نبيهم هو ما أوحاه إلى الأنبياء من قبلهم :

" **شَرَعَ لَكُم مِنَ الدين مَا وَصى بِهِ نُوحًا و الذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ و مَـا وَصيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ و مُوسَى و عِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدينَ و لاَ تَتَفَرقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ و يَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ** " (سورة الشورى الآية ١٣) .

هذا الدين المشترك بين المسلمين و غيرهم من الأمم السابقة علـيهم هـو : التوحيد المطلق ، و التصديق برسل الله ، و كتبه. و الإيمان بكل ذلـك دون تفرقة أو تمييز عنصري أو طائفي بين رسول و رسول ، أو كتاب و كتاب :

" **قُولُواْ آمَنا بِاللّهِ و مَآ أُنزِلَ إِلَيْنَـا و مَـا أُنـزِلَ إِلَـى إِبْـرَاهِيمَ و إِسْمَاعِيلَ و إِسْحَقَ و يَعْقُوبَ و الأَسْبَاطِ و مَـا أُوتِـيَ مُوسَـى و عِيسَى و مَا أُوتِيَ النبِيونَ مِن ربهِمْ لاَ نُفَرقُ بَيْنَ أَحَـدٍ مـنْهُمْ و نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ** " (سورة البقـرة الآية ١٣٦)

و الإسلام بهذا المعنى لا يتصور أن يكون بينه و بـين الرسـالات الإلهيـة السابقة عليه خلاف أو تعارض أو افتراق[1] .

ولا ينبغي أن نفهم من اشتراك الرسالات الإلهية فى دين واحد ، أنها تشترك فى "شريعة" واحدة كذلك . لأن الدين مضمون ثابت فى كل رسالة لا يتعدد و لا يختلف . بينما تختلف الشريعة و تتعدد بين رسالة و رسالة أخـرى من رسالات السـماء ، و نعنـي بالدين هنـا : البيان الإلهي المتعلق بالعقيدة و أصول الأخلاق و العبادات . أما الشريعة فهى "القوانين" الإلهية التى تنظم حياة المؤمنين و تصرفاتهم الاجتماعيـة التى تتغير من زمان لزمان و من مكان لآخر . و الذي يتصفح آيات القرآن تتضح له أن "التوحيد" كان يمثل

[1] انظر فى هذا : محمد عبد الله دراز ، الدين ، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ١٧٦ ، دار القلم، الكويت ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م .

"قطب الرحى" فى كل الرسالات ، و أن دعوة الأنبياء إليه تشابهت شكلاً و مضموناً : فالنبي نوح يقول :

" **يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** " (المؤمنون : ٢٣)

و كذلك إبراهيم:

" **وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ و اتقُوهُ** " (العنكبوت: ١٦)

و فى خطاب الله لموسى :

" **و أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنني أَنَا اللهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي و أَقِمِ الصلاةَ لِذِكْرِي** " (طه : ١٣ – ١٤)

و عيسى :

" **مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبي و رَبكُمْ** " (المائدة : ١١٧)

و يلفت النظر فى الآية الأخيرة التأكيد الإلهي على أن "الدين" هو الوحي المشترك بين الأنبياء ، و أنه أمر واحد لا يصح أن يقع فيه اختلاف أو تفرق بين المؤمنين أياً كانت أزمانهم و كيفما كانت رسالتهم .

و إذا كان أمر الدين واحداً فى فلسفة الإسلام ، فإن الشريعة ليست كـذلك ؛ إنها تختلف باختلاف الناس ببيئاتهم و أزمانهم و أماكنهم و أحوالهم . و من هنا أكّد القرآن على اختلاف الشرائع بين المؤمنين :

" **لِكُل جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً و مِنْهَاجًا و لَوْ شَاء اللّـهُ لَجَعَلَكُـمْ أُمـةً وَاحِدَةً** " (المائدة : ٤٨).

و نحن نلاحظ أنه بالرغم من اختلاف الشرائع بين جماعات المؤمنين ، فـإن وحدة الدين تنشئ من علاقات المودة ، ما يشبه "صلة الرحم" التى تربط بين المؤمنين جميعاً حيثما كانوا و كيفما كانت شرائعهم و رسالاتهم.

إذا ما تقدمنا خطوة أخرى فى بيان علاقة "الإسلام" بالأديان وجـدنا أن هـذه الوحدة العضوية لم تتوقف عند حدود الدين : عقيدة و عبادة و أخلاقاً[2] ، بل امتدت لتشمل علاقة نبي الإسلام بالأنبياء السابقين . و علاقة القرآن بالكتـب السماوية السابقة . فنبي الإسلام يصدق إخوانه الأنبياء ، و يُـؤمن بهـم ، و يُتمم ما بدأوه من دعوة الناس إلى الله . و يقرأ المسلمون فى هذا المعنـى قرآناً يتلى على مسامعهم صباح مساء :

" آمَنَ الرسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبهِ و الْمُؤْمِنُونَ كُل آمَنَ بِاللـهِ و مَلائِكَتِهِ و كُتُبِهِ و رُسُلِهِ لاَ نُفَرقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُـلِهِ و قَـالُوا سَمِعْنَا و أَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبنَا و إِلَيْكَ الْمَصِيرُ " (البقرة :٢٨٥) .

و قد صور محمد ﷺ هذه الوحدة العضوية التى تجمع بينه و بين إخوته من الأنبياء و المرسلين عبر التاريخ ، فى كلام جميل رائع يقول فيه : "أنا أولى الناس بعيسى بن مريم فى الدنيا و الآخرة و الأنبياء إخـوة لعَلاّت[3]، أمهاتهم شتى و دينهم واحد" ، أي : أن الأنبياء يشبهون إخوة من أب واحد و أمهات شتى ، و الأب الواحد هو الدين الذى يجمعهم جميعاً ، و الأمهات التى تفرقهم

---

[2] نلفت النظر هنا إلي أن "الصلاة" – مثلاً – شكلت مظهراً قوياً تجلت فيه وحدة الرسالات الإلهية ، و بحيـث وجدنا دعوات الأنبياء تتحد فيها كما اتحدت في "العقيدة" سواء بسواء و لإثبات هذه القضية يمكن الرجوع إلي القرآن الكريم في المواضع الآتية : ٣ : ٣٩ ؛ ١٤: ٣٥ -٤٠ ؛ ١٩ : ٢١ – ٢٣ ؛ ٢٠ : ١٣- ١٤ ؛ ٢١ : ٧٣ ؛ ٣١ : ١٧ . و ما يقال عن "الصلاة" يقال عن "الصوم" كذلك، أنظر أيضاً القـرآن الكـريم (البقـرة : ١٨٣). أما الاتحاد في " الأخلاق " و الفضائل العامة فهو أظهر من أن يكون محل بحث و تحليل.

[3] العلاّت : الزوجات الضرائر ، و الإخوة لعلات : الإخوة من أب واحد و أمهات متعددة أنظر صحيح الإمام البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب ٤٨ حديث رقم ٣٤٤٣ .

هى الأزمنة و الأمكنة التى يختلف بها نبـي عـن نبـي ، و رسـول عـن رسـول .

والشيء نفسه يقال على القرآن الكريم : إنه يصدق الكتـب الـسماوية فـي صورتها الأولى التي لم تبتعد فيها عن منبعها الإلهي . و نحـن نـتعلم مـن القرآن أن الإنجيل مصدق و مؤيد للتوراة ، و أن القرآن مـصدق و مؤيـد للإنجيل و للتوراة ، و لكل ما سبقه من الكتب السماوية :

" **نَزلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَق مُصَدقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ و أَنْـزَلَ التـوْرَاةَ و الإنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلناسِ** " (آل عمران آية : ٣ ـ ٤)

" **إنا أَنْزَلْنَا التوْرَاةَ فِيهَا هُدىً و نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النبِيونَ الذِينَ أَسْلَمُوا لِلذِينَ هَادُوا** " (المائدة : ٤٤)

" **و آتَيْنَاهُ الإنْجِيلَ فِيهِ هُدىً و نُورٌ و مُصَدقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْـهِ مِـنَ التوْرَاةِ و هُدىً و مَوْعِظَةً لِلْمُتقِينَ " (المائدة آية : ٤٦)**

و هذه الأصول القرآنية هى التي حكمت تـصورات المـسلمين ، و تركـت بصماتها قوية و عميقة على علاقتهم بغيرهم من أهل الأديان السماوية منـذ أيامهم الأولى . فنحن نؤمن بموسى و عيسى كما نـؤمن بمحمـد سـواء بسواء ، و نعتقد أن التوراة كتاب الله و أن الإنجيل كتاب الله ، و أنهما هدى و نور للناس ، و نقول : إن كثيراً من فقهاء الإسلام يقررون أنـه إذا كـان لا يجوز للمسلم أن يمس القرآن و هو جنب و كذلك المسلمة الحائض ، فإنه لا يجوز لأي منهما أن يمس التوراة أو الإنجيل حتى يغتسل.

إن ديناً تتأسس فلسفته في علاقته بالرسالات الإلهية الأخرى على هذه الوحدة العضوية التي بيّنّاها في الفقرات السابقة ، و من خلال نصوص صـريحة لا مجال فيها لغموض أو خفاء ، لابد و أن يُنشئ حضارة سمحة و منفتحة على

الحضارات الأخرى تتعامل معها من منطلق التعارف والتكامل وليس من منطلق الصراع أو الإقصاء . ولو رحنا ندلّل على هذه الفرضية فإن وقت المحاضرة لا يتسع لتفصيل القول في ذلك . ولكن أكتفي بتسجيل الحقائق التالية :

- يقرر القرآن الذي يحفظه كثير من المسلمين عن ظهر قلب أن الله لو شاء أن يجعل الناس علي دين واحد وعقيدة واحدة و لون واحد و لغة واحدة لفعل ، لكنه لم يشأ ، ذلك و شاء بدلاً منه أن يخلقهم مختلفين في أديانهم وعقائدهم وألوانهم ولغتهم . وأن يستمر هذا الاختلاف إلى آخر لحظة في عمر هذا الكون :

" وَلَوْ شَاءَ رَبكَ لَجَعَلَ الناسَ أُمةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ " (هود : ١٨) .

- ويترتب على هذا الاختلاف الذي أراده الله للناس أن تختلف الأديان والعقائد ، وتبقى مختلفة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ويمكن أن نقول : إن اختلاف العقائد واستمرارها حقيقة قرآنية وكونية معاً ، ومن هذا المنطلق لا يمكن للمسلم أن يتصور اجتماع البشرية كلها علي عقيدة واحدة أو دين واحد ، ولا أن يتصور تحويل الناس إلى دين واحد ، حتى لو كان هذا الدين هو "الإسلام" ، وما دام الأمر كذلك فإن العلاقة بين "المسلم" و "غير المسلم" هي علاقة "التعارف" و هذا ما حدده القرآن فى نص صريح واضح يقول :

" يَا أَيهَا الناسُ إِنا خَلَقْنَاكُم من ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِن أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِن اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " (سورة الحجرات – الآية ١٣)

- استعراض تاريخ الحضارة الإسلامية يبرهن على التزام هذه الحضارة بالأصول القرآنية ، التى تحدثنا عنها ، مع الأديان والحضارات والشعوب التى انفتحت عليها ، ولا نستطيع بطبيعة الحال أن نتقصى تاريخ الحضارة الإسلامية فى هذا المجال . ولكن نركز فقط – و فى إيجاز شديد – على تاريخ الإسلام و سماحته مع "المسيحية" رسالة و رسولاً وأتباعاً .

فالقرآن فيه حديث جميل عن سيدنا عيسى عليه السلام و عن أمه مريم العذراء عليها السلام . و فيه سورة "مريم" ، و فيه سورة أخرى تسمى سورة "الروم" و هم المسيحيون الشرقيون الذين كانوا يتاخمون حدود الدولة الإسلامية ، و يشكلون الجار الأقرب للمسلمين. و هنا يحدثنا التاريخ أن الفرس الوثنيين حين هزموا الروم المسيحيين ، سخر الوثنيون العرب من المسلمين ، و عيّروهم بهزيمة الروم . و لما شكا المسلمون أمرهم إلى النبي ﷺ ، نزل وعد الله بأن الروم سيغلبون الفرس في بضع سنوات قلائل ، و أن المؤمنين من مسلمين و مسيحيين سيفرحون بنصر الله . و هنا نقرأ قول الله تعالى :

" غُلِبَتِ الرومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ و هُم من بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ و مِن بَعْدُ و يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللهِ يَنصُرُ مَن يَشَاء و هُوَ الْعَزِيزُ الرحِيمُ * وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِن أَكْثَرَ الناسِ لا يَعْلَمُونَ "
(سورة الروم الآيات ٢ – ٦)

وقد صدق وعد الله ، و فرح المسلمون لانتصار الروم المسيحيين . و يلفت النظر في هذه الآيات أن القرآن ذكر كلمة "المؤمنون" عنواناً جامعاً ينطبق على المسلمين و على الروم . و هذا العنوان هو وحدة الدين التي تحدثنا عنها

من قبل ، و التي كادت تجعل من الفريقين أمة واحدة في مقابل أمة الوثنية و الشرك . و سورة "الروم" هذه من السور المتقدمة جداً في نزول القرآن ، مما يعني أن علاقة "الأخوة" بين المسلمين و المسيحيين علاقة مقررة منذ السنوات الأولى من تاريخ المسلمين ، و أنها استمرت حتى السنوات الأخيرة في عصر الرسالة المحمدية. و الذي يتأمل سيرة النبي ﷺ طوال فترة الرسالة فى مكة و المدينة لا يصعب عليه أن يرصد "المودة" الخاصة الكامنة وراء كل تصرفاته و تعاملاته مع المسيحيين أو النصارى كما كانوا يسمون آنذاك . نجد ذلك فيما يسمى بهجرة المسلمين المستضعفين في مكة إلى الحبشة المسيحية و ملكها المسيحي ، و قد حدثت هذه الهجرة مرتين في العهد المكي ، و كان من بين المهاجرين عثمان بن عفان و زوجه رقية ابنة النبي ﷺ . و قال النبي ﷺ لأصحابه الضعفاء و المستضعفين : "إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظْلم أحد عنده فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً و مخرجاً مما أنتم فيه" . و يحدثنا التاريخ أن ملك الحبشة استقبل المسلمين استقبالاً حسناً و حماهم و أمّنهم ، و لم يسلمهم إلى وفد قريش الذي جاء إلى الملك ليطلب منه عودة هؤلاء المستضعفين إلى ساداتهم في مكة ، و لما يئس وفد قريش من استجابة الملك المسيحي العادل لجأ عمرو بن العاص إلى حيلة يوقع بها بين الملك و المسلمين . فقال للنجاشي : "أيها الملك ! إنهم يقولون فى عيسى قولاً عظيماً". فأرسل الملك إلى جعفر بن أبي طالب و سأله فقال له جعفر : "نقول هو عبد الله و رسوله و كلمته و روحه ألقاها إلى مريم العذراء البتول" و قرأ عليه آيات من سورة "مريم" فبكى النجاشي و أعطى الأمان للمسلمين ، و كان كما قالت أم سَلَمَةْ (زوج النبي ﷺ): "نزلنا بخير دار ، إلى خير جار ، آمنا على ديننا و لم نخش منه ظُلماً" .

و قصة نصارى نجران – و هى قصة موثقة فى القرآن و التاريخ – تقص علينا أن وفداً ، مكوناً من ٦٠ رجلاً من أشراف نجران من المسيحيين

يتقدمهم الأسقف أبو حارثة ابن علقمة ، ذهبوا ليحاوروا نبي الإسلام في أمر رسالته الجديدة ، فاستقبلهم النبي فى مسجده بالمدينة . و استـضافهم فيـه ، و جرى الحوار بينه و بين الوفد المسيحي فى رحاب المسجد النبوي بالمدينة المنورة ، و لما حان وقت صلاتهم قالوا للنبي : "يا محمد ! إن هـذا وقـت صلاتنا ، و إنا نريد أن نؤديها . فقال لهم : دونكم هذا الجانب من المسجد ، صلوا فيه" و صلى المسيحيون صلواتهم الكنسية فى مسجد النبي بالمدينـة . و لم يجد النبي و لا المسلمون أدنى حرج فى أن يستخدم المسيحيون مـسجد النبي – و هو أول مسجد فى تاريخ الإسلام – ليؤدوا فيه صلاتهم .

و قد شجّعتني هذه الحادثة – حين كنت مدعوا للغداء فى إحدى كنائس مدينة فريبورج بسويسرا – على أن أطلب من كبير الأساقفة أن يأذن لي بالصلاة . فأذن لي مشكوراً ، و هيأ لي غرفة صغيرة ، و أحضروا فيها نـسخة مـن القرآن الكريم ، و صليت فى هذا المكان بمذاق خاص من الروحانية الأخاذة لا أنسى سحره حتى هذه اللحظة . و علمت وقتها كيف أن الأديان حين تخلو من التوظيفات الرديئة فإنها تشيع المحبة و السماحة فى نفـوس المـصلين ، أينما كانوا ، و كيفما كانت عقائدهم و أديانهم .

و كثيراً ما توقفت عند حادثة هذا الوفد المسيحي الذى قطـع آلاف الأميـال على ظهور المطايا ليحاور نبي الإسلام ، و كيف أن هذا الحوار حدث فـي أقدس مكان في عاصمة الإسلام الأولى ، و تم فى جو من المودة الخالصة ، رغم الحساسية الشديدة ، و الحرج البالغ على طرفي مائدة الحوار ، و كيف انتهت المهمة فى حرية تامة مكفولة للطرفين ، و تساءلت : هـل يمكـن أن نتصور حدوث حوار من هذا النوع فى مساجدنا و كنائـسنا الآن ؟ و هـل ينتهي بنفس الحرية و السماحة التي انتهى بها حوار أسلافنا القدامى !! أو أن حواراً على هذا المستوى سوف يبعث منذ اللحظات الأولى تاريخاً كاملاً من الكراهية و الحقد و التعصب و الفرقة بين المؤمنين فى الشرق و الغـرب ؟!

و أكبر الظن أن ما نعلمه الآن – و نراه – من المضاربة "بالأديان" فى سوق السياسات و الصراعات الدولية يرشح الاحتمال الثاني بكل قوة .

ولا يفوتني هنا أن ألفت النظر – إلى موقف النبي محمـد ﷺ مـن الـسيد المسيح و أمه مريم العذراء – عليهما الصلاة و السلام – حين دخل مكة مع المسلمين و حطّم الأصنام من حول الكعبة ، و وجد صور الأنبياء و الملائكة معلقة على حوائطها ، فأمر بإزالة كل الصور ، ما عدا صورة واحدة وضع يديه عليها . و لما انتهت عملية الإزالة رفع النبي يديه ، فإذا الصورة التـى خبأها هي صورة عيسى المسيح مع أمه مريم ، و كانت هى الصورة الوحيدة التي بقيت مرسومة على أحد الأعمدة الداخلية للكعبة ، و ذلك قبل أن يزيلها تجديد الأعمدة الذي حدث بعد ذلك بفترة طويلـة ، و قـد رأى كثيـر مـن الصحابة و التابعين هذه الصورة ، منهم عطاء بن أبي رباح[٤] وقد سُئل : هل رأيت صورة مريم و عيسى ؟ فقال : "نعم أدركت تمثال مريم مزوقـاً فـى حجرها عيسى قاعداً ، و كان فى البيت (الكعبة) ستة أعمدة ، و كان تمثـال عيسى و مريم فى العمود الذي يلي الباب[٥] .

أيها السـ ـ ـادة :

إذا عُدنا إلى علاقة "التعارف" التي أشرنا إليها من قبل ، و التـي وضـعها الإسلام كقانون يحكم علاقة المسلمين بغير المسلمين فإن هاهنا سؤالاً يطرحه كثيرون ممن لا يعرفون حقيقة هذا الدين و سماحته مـع الآخـرين . هـذا السؤال هو : إذا كان "التعارف" هو المقصد الإلهي الذى خلق الله الناس مـن أجله و جعلهم شعوباً و قبائل . فلماذا الحرب إذاً ؟ و الإجابة فى كلمة واحدة

---

[٤] من كبار فقهاء مكة و علمائها ، توفى سنة ١١٤ هـ .
[٥] أنظـر أخبار مكة لأبي الوليد الأزرقي ص ١١١.

هى أن "الحرب" أو "القتال" فى فلسفة الإسـلام "اسـتثناء" . أو "ضـرورة" تفرضها ظروف و مناسبات خاصة . و يتساؤل آخـر : مـا الـذي يـدفع المسلمين لأن يحملوا السلاح فى وجوه الآخرين ؟ هل هـو كُفْـر الآخـرين و عدم إسلامهم ؟ أو هو اعتداء الآخرين عليهم ؟ و الإجابـة الثانيـة هـى الإجابة الصحيحة التى يُقرّها الإسلام و تُقرّها فلسفته فى علاقات المـسلمين بغيرهم . و من هنا قرر جمهور فقهاء المسلمين أن الاختلاف فى الـدين لا يمكن أن يكون سبباً مبيحاً للحرب ، و أن السبب الوحيـد هـو "العـدوان" . و الدليل على ذلك أن فقهاء المسلمين جميعاً متفقون على حرمة قتل طوائف معينة فى جيش العدو ، مثل : المرأة ، و الصبي ، و الأعمـى ، و المقعـد و المعوّق ، و الراهب ، و لا يوجد فقيه واحد فى تاريخ شريعة الإسلام خرج عن هذا الحكم ، و أجاز قتل واحد من هؤلاء ، رغم وجودهم فـى معـسكر العدو و جيشه . لماذا ؟ لأن هؤلاء و أمثالهم لا يتصور مـنهم عـدوان و لا قتال ، و إذاً فلا يجوز قتالهم . و هنا أذكّر بدستور الحرب فـى الإسـلام ، و بالوصايا التى كان يُزوّد بها قائد الجيش قبل خروجه لملاقـاة العـدو : "إنك ستجد قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله[٦] ، فَذَرْهُم و مـا حبسوا أنفسهم له . و إني أوصيك بعشر ، لا تقتلن امرأة و لا صبياً ، و لا كبيراً هرمـا ، و لا تقطعن شجراً مثمراً ، و لا تخرّبن عامراً ، و لا تعقرن شاة و لا بعيراً إلا لمأكلة[٧]، و لا تحرقن نخلاً ، و لا تغرقنّه و لا تغلل[٨] ، و لا تجبن"[٩] و قد رأى النبي ﷺ فى بعض ساحات القتال امرأة مقتولة ، فأنكر ذلك ، و قال : "ما كانت هذه لتقاتل" أي : إنها لم تحمل السلاح و تقاتل ، فكيـف قُتلـت ؟! و هذا الحديث أصل فى أن سبب القتال أو الحرب هو حمل السلاح و العدوان

---

[٦] يقصد الرهبان و العباد فى صوامعهم و أديرتهم.

[٧] لا تذبح شاة و لا بعيراً إلا لضرورة الأكل و الطعام .

[٨] لا تَخُن ، لا تكن من الخائنين .

[٩] انظر : موطأ الإمام مالك ، كتاب الجهاد ، باب النهي عن قتل النساء و الولدان فى الغزو .

من الآخرين . و إذاً فالأساس الذي قام عليه تشريع "الجهاد" فى الإسلام هـو "العدوان" ، و ما دام الآخرون لا يعتدون على المسلمين فلا يجوز للمـسلمين أن يبدأوهم بالقتال . و هذا ما قرره القرآن الكريم فـي نـصوص صـريحة قاطعة :

" لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدينِ و لَمْ يُخْرِجُوكُم من دِيَارِكُمْ أَن تَبَروهُمْ و تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِن اللهَ يُحِب الْمُقْسِطِينَ * إِنمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدينِ و أَخْرَجُوكُم مـن دِيَـارِكُمْ و ظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلوْهُمْ و مَن يَتَـوَلهُمْ فَأُوْلَئِـكَ هُـمُ الظالِمُونَ " (سـورة الممتحنة الآية : ٨ ، ٩) .

ومثل الإعتداء على الوطن الإعتداء على العقيدة فكلاهما عدوان يجب دفعه ، و إذا ردّ المسلمون الإعتداء فعليهم أيضاً ألا يتجاوزوا الحد :

" وقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ و لاَ تَعْتَدُواْ إِن اللّهَ لاَ يُحِب الْمُعْتَدِينَ " (سـورة البقرة الآية : ١٩٠) .

و يكفي أن نقول : إن أول آية نزلت لتشـرع للمسلمين حق القتال هي قولـه تعالى :

" أُذِنَ لِلذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنهُمْ ظُلِمُوا و إِن اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَق إِلا أَن يَقُولُوا رَبنَا اللهُ و لَوْلا دَفْعُ اللهِ الناسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لهُدمَتْ صَوَامِعُ و بِيَعٌ و صَـلَوَاتٌ و مَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا و لَيَنصُرَن اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِن اللهَ لَقَوِي عَزِيزٌ " (سورة الحج الآية : ٣٩-٤٠)

و في هذا النص القرآني يتضح تحديداً أن أول سبب لمشروعية القتـال فـي الإسلام هو : "نصرة المظلومين" و تمكينهم من حقهم في حياة آمنة ، و هـو

سبب لا يختلف على مشروعيته إثنان من العقلاء ، كما يتضح أيضاً أن "الحرب" في هذا النص مشروعة للدفاع عن الإيمان بالله ضد عدوان المشركين و الوثنيين . و من العجيب هنا أن نلاحظ أن الدفاع المشروع في هذه الآية ليس قاصراً على الدفاع عن الإسلام فقط ، بل يدخل فيه الدفاع عن حرية العقيدة في أي دين من الأديان السماوية الأخرى . و معنى ذلك أن الإسلام يكلف المسلمين بالحرب ليُؤمنوا للمسيحيين و لليهود حرية العبادة في الكنائس و المعابد ، كما يُؤمنوا لأنفسهم حرية العبادة في المساجد ، و قد قال ابن عباس و هو من كبار الصحابة في تفسير هذه الآية : "يدفع بدين الإسلام و بأهله (المسلمين) عن أهل الذمة من اليهود و النصارى". و إذاً فالهدف من الحرب الدفاعية في الإسلام ليس الدفاع عن المساجد فقط ، بل الدفاع أيضا عن أماكن العبادة الخاصة بغير المسلمين سواء بسواء .

ولعله يتبين مما تقدم أن الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم هو "السلم" و ليس "الحرب" ، و أن هذا الرأي هو رأي جمهور علماء المسلمين ، و أنه الرأي الذي يعبر عن فلسفة القرآن في مسألة "الحرب" ، و عن الحكمة من إرسال "محمد" ﷺ :

" **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ** " (سورة الأنبياء آية : ١٠٧)

و خطاب القرآن للمؤمنين بأن يدخلوا في السلام :

" يَا أَيهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَةً و لا تَتبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنهُ لَكُمْ عَدُو مبِينٌ " (البقرة : ٢٠٨) .

نعم هناك قلة قليلة في ميراثنا الفقهي خالفت هذا الأصل ، و لم تبن نظرياتها علي نصوص واضحة لا من القرآن و لا من سنة النبي ﷺ ، بل تأثرت في

نظرياتها الفقهية بأمور أخرى لا يتسع المقام لذكرها ، و قد قـال علماؤنـا : إن فقه هذه القلة القليلة "فقه واقع و ليس فقه نصوص" .

أيها السـ ـ ـادة :

هناك آفاق عديدة لبيان سماحة الإسلام مع أهل الأديان الأخـرى ، لا يتّـسع الوقت لعرضها عرضاً مفصلاً . و لكن نختم ورقتنا هذه بأنه إذا كنا قـصدنا من هذه المحاضرة أن نبيّن جانباً من سماحة الإسلام التي تمثلت في إقـرار حقيقة "الاختلاف" في العقائد و الألوان و اللغات ، و في قيام العلاقات الدولية على أصل السلام و التعارف و التآلف ، و على بناء جسور المودة بين أتباع الديانات السماوية الثلاث ، فإن من المهم – فيما نعتقد – أن نبين أن الإسلام يهتم أيضاً بألا تتميّع هذه السماحة إلى حد المهانة أو الاستهانة . و إذا كـان السلم هو أحد وجهي العملة فى علاقة المسلمين بغير المسلمين فـإن الوجـه الآخر هو القوة و المنعة و الاستعداد المستمر ، و ليس الجهاد في الإسلام إلا هذين الوجهين مجتمعين متلازمين ، فإذا أُخذ علي أنه السماحة مطلقـاً ، أو الحرب مطلقاً ، فقد بَطُل مفهوم الجهاد في الإسلام و فسد معناه .

ونحن نعتب كثيراً على مثقفي الغرب الذين يتخذون موقفاً رسمياً جاهزاً ضد الإسلام و المسلمين ، و يصفوننا بالدموية و بالفوضى و بالإرهاب على طول الخط ، و بالرغم من إجماع المسلمين : سياسيين و مفكرين على إدانة هجوم سبتمبر و رفضه ، فإن وصم الإسلام بالإرهاب أصبح نغمة لا تشكّل أي ملل في آذان كثير من الغربيين، سياسيين و مفكرين . و هنا أود أن أقارن سريعاً بين صورتين : صورة المسلمين الذين تعرضوا لمجـازر وحـشية بـسبب الحروب الصليبية قديماً و الصربية حديثاً و الفوضى العامة فـي العـراق ، و العدوان على لبنان و التي سالت فيها دماء المسلمين أنهاراً و بـأكثر ممـا

سال من دماء المركز التجاري مئات و آلاف المرات ، و مع ذلـك لا تجـد كاتباً مسلماً واحداً يخلط بين جرائم الصليبيين الشنعاء و بين المسيحية كـدين إلهي ، و لم نسمع كلمة واحدة نابية تمس المسيحية و لا اليهودية من قريـب أو من بعيد ، و كان المسلمون – دائماً – على وعي عميق بالمفاصلة بين ما يدعوا إليه دين سيدنا عيسى و سيدنا موسى عليهما السلام و بين ما يـدعو إليه هؤلاء الدمويون . لكنك – للأسف - لا تجد لهذا الموقف الجاد المسئول مثيلاً في الغرب الذي اختلطت في ذهنه كل الأوراق فـي لحظـة غـضب و انفعال ، و فقد القدرة على التمييز بين القاعـدة و الـشذوذ ، و وصـف الإسلام و نبي الإسلام و المسلمين جميعاً بالإرهاب و التطـرف و الهمجيـة و البربرية . و يقتضينا واجب الإنصاف ألا نعمم ما قلناه على كل المشتغلين بالإسلاميات من الغربيين ، فهناك أقلام حرة و مـسئولة رفـضت مقـولات المستشرقين المسوّقة لخدمة الاستعمار ، و تسهيل مهمة الإنقـضاض علـى ثروات الغير ، و قد استطاعت هذه الأقلام أن تكشف عن الصورة الحقيقيـة للإسلام بحسبانه وحياً و هدياً إلهياً للناس كافة ، و هؤلاء يتزايـدون الآن ، و منهم من لم يسعه إلا إعتناق هذا الدين ، و هم كثيرون ، و لعـل هـؤلاء أقدر منا على إزالة هذا الخلط أو الغبش الذي أصاب مرآة الغـرب و هـي تعكس صورة الإسـلام للغربيين .

شـ ـ ـ ـ ـكراً لحسن استماعكـ ـم

****

أ.د / أحمـ ـ ـد الطيب

رئيس جامعة الأزهر